طلعنا عالحريّة

حرية، كرامة، مواطنة

العدد 103

2022 / 2 / 28

مجلة شهرية، سياسية، فكرية، ثقافية، مستقلة

"نحن وحدنا.. القوى العظمى تراقب من بعيد"

افتتاحية العدد بقلم أسامة نصّار

لنتجاوز الاختلافات في تحليلات الأحقية في حرب روسيا البوتينية على أوكرانيا.. يبدو تمايز السوريين الأساسي واضحاً؛ جمهور الثورة ضدّ روسيا ومع أوكرانيا، وقد كانوا كذلك أثناء الثورة الأوكرانية في 2014 والتي كان اسمها "ثورة الحرية والكرامة" أيضاً. فيما يقف جمهور النظام الأسدي ضدّ "الغرب النازي" وضدّ "سياسة القطب الأوحد".. في هذه الضفة يُرفع العلم الأوكراني الأزرق والأصفر إلى جانب علم الثورة، وفي تلك تُرفع صور "أبو علي بوتين" مع صور "أبو حافظ" حليفه والناجي بفضل مساندة الأول الحاسمة، ولا تستبعد أن ترى بجانب الصورتين بسطاراً عسكرياً مبجّلاً فوق الرؤوس! الانحياز مع المستضعف خيار بسيط ولا يحتاج لإحاطة معرفية وكثير من التفاصيل، يكفيه فقط ضمير حي. لكن رغم ذلك، من الصعب أن تحضر الموضوعية في الاصطفاف، خاصة في حالتنا؛ فكيف نتكلم عن الإمبريالية الغربية وتاريخ أمريكا الدموي، أو نتفهم تململ الروس من انقلاب الغرب على اتفاقيات -معلنة وغير معلنة- حول توازن القوى واحترام الأمن القومي والتوازن العالمي.. ومازال دمنا المسفوك ساخناً من الإجرام البوتيني؟ وكيف يمكننا كذلك أن نستمع بعد الآن لتبجح الغرب بحقوق الإنسان ونشر الديمقراطية؟ ومزاعم "أصدقاء الشعب السوري" الذين دعموا السوريين بـ"الأسلحة غير الفتاكة" بالتقطير، بينما وصلت مضادات الطائرات للجيش الأوكراني مباشرة، وفتح باب تطوع المقاتلين من دول أوربية لمؤازرة الجيش الأوكراني.. وخطابات مرحّبة باللاجئين الأوكرانيين الهاربين من الحرب.. من المؤسف أيضاً أنه خلال إرهاصات الحرب على أوكرانيا، تسمع تبريرات كثيرة لأطرافها. تبريرات وذرائع عن كل شيء يتعلق بالاقتصاد وخطوط الغاز، ونظم بنكية، وماضي السوفييت وخذلان الغربيين وكذبهم.. عن التاريخ، والحساسية الجغرافية.. وعن وعن.. بحيث يبدو الأوكرانيون أنفسهم طرفاً جانبياً في المعادلات.. نتكلم عن 40 مليون نسمة، أوربيين "بيض" "ليسوا سوريون انتخبوا قيادتهم ديمقراطياً! في خطابه المؤثر عشية شنّ الحرب على بلده، قال الرئيس الأوكراني: "نحن وحدنا.. القوى العظمى تراقب من بعيد"، ورغم نسبية هذه الـ"وحدنا" أمام وحدة شعوب منطقتنا المنكوبة، بدا الرئيس الأوكراني مثل ضيف السكتش الكوميدي من مسلسل الأطفال الشهير "شارع السمسم"، الضيف كان عالماً، بحث ودرس حتى وصل لاختراع أطلق عليه اسم "حاميات الأرجل" ثم يكتشف أن كل الناس يعرفون الجوارب قبل "اختراعه" بسنوات طويلة.. فقبل خذلان الأوكرانيين، الأمريكان والغرب تركوا الأكراد للريح بعد وعود وأماني، وكذلك خذلوا الأفغان والباكستانيين والمصريين.. وقائمة طويلة من المتروكين لمصيرهم أمام نذالة الغرب الديمقراطي صاحب شرعة حقوق الإنسان. لا داعي لاستحضار المثال السوري، أو الهندي الأحمر! لو نجح الروس بإخضاع أوكرانيا ستعزز شريعة الغاب -الموجودة أصلاً- بأن القوي يفرض احترامه، وإن افتقر لعدالة المطلب. وحتى لو تجاوزت أوكرانيا المحنة أو لو صمدت حيناً وحققت شيئاً ضدّ الروس، فستصل رسالة مكررة للشباب في بلادنا هي استمرار لضخ محفزات التطرف والعنف؛ فلا شيء يحمي بلدك وأهلك من بطش الجبارين، لا الدكتاتورية بأجهزة مخابراتها وعسكرها، ولا الديمقراطية ببرلمانها وصحافتها الحرة، وإنسانيتك مسألة نسبية في حسابات عنصريين، يريدون تعليمك التحضر.

طلعنا عالحريّة
شهرية ثقافية، اجتماعية، سياسية، تعنى بالشأن السوري

www.freedomraise.net
المقالات المنشورة تعبر عن آراء أصحابها أولاً ولا تعبر بالضرورة عن آراء هيئة التحرير
المجلة غير ملزمة بنشر كل ما يردها من مواد

رئيس التحرير أسامة نصّار
نائب رئيس التحرير ليلى الصفدي

تفاعل معنا عبر صفحاتنا على الإنترنت
facebook.com/rising4freedom
twitter.com/freedomraise
freedomraise@gmail.com

المدير الإداري معتصم أبو الشامات | الغلاف سمير خليلي | كاريكاتير سمير خليلي / هاني عبّاس | أمن رقمي ومحاسبة وائل موسى | زملاء مختطفون في سوريا رزان زيتونة - ناظم حمادي

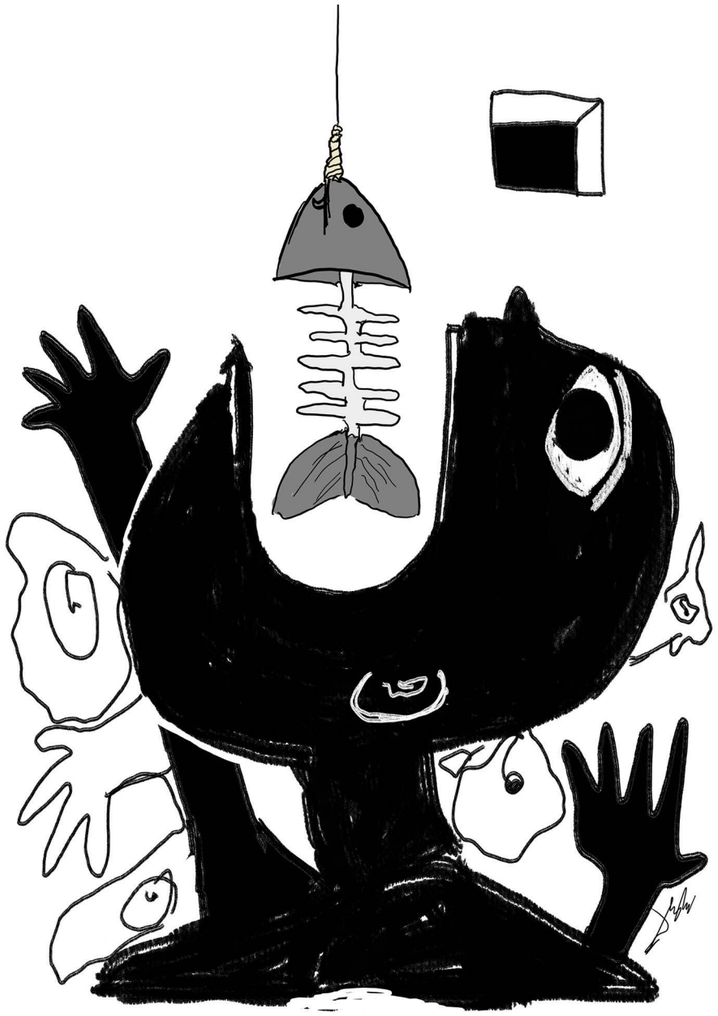

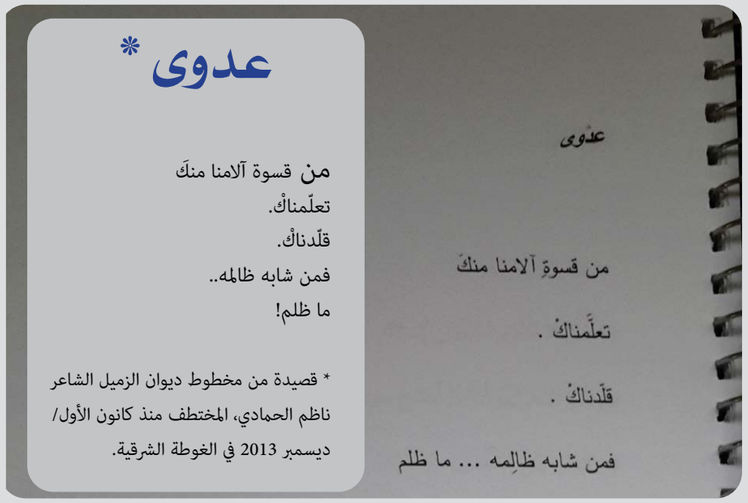

عدوى *

من قسوة آلامنا منكَ
تعلّمناكْ.
قلّدناكْ.
فمن شابه ظالمه..
ما ظلم!

* قصيدة من مخطوط ديوان الزميل الشاعر ناظم الحمادي، المختطف منذ كانون الأول/ ديسمبر 2013 في الغوطة الشرقية.

عودة إلى لبنان

مرزوق الحلبي

في لبنان حكومة وبرلمان ورئيس ووزارات، وألقاب تبدأ من سعادة السفير والوزير والرئيس وتنتهي بـ"سماحة السيّد". في لبنان مصارف ومؤسسات وشركات وعمارات ومشاريع، وسعر للتبادل، ومعدلات للفائدة.. لكن لبنان ليس دولة وإنما ما تبقّى منها. فالدولة في أحد تجلّياتها هي حدود وسيادة وقرار وطني ومشروع وطني. ولبنان سيادات ومشاريع وحدود سائلة. لبنان هو صورة عن الشام والعراق وفلسطين؛ الشعوب فيها محكومة بقوة، لا شرعية لها سوى كونها قوة، وتفوق في قدراتها قدرات الشعوب. ومن هنا دأبها على مصادرة طموحات هذه الشعوب وحقوقها وأحلامها. ودأبها على قهر الشعوب وتكسير إراداتها وإخضاعها.

الإقرار بهذه الحقيقة يقودنا إلى التباس في علاقتنا بالدولة، وبوجودها في الذهنيّة وعلى الأرض. فرغم واقع انهيارها لا نزال نتصوّرها ونراهن على إمكانية أن تصحّ وتستوي. ورغم معرفتنا مثلًا أن حزب الله هو وكيل لقوة أجنبيّة، ورأس حربة في مشروعها، الذي لا علاقة له بلبنان سوى كون لبنان ضحية له ومطيّة يعتليها حتى يصل، فإن القوى السياسيّة والشعب يتعاملون مع هذا الحزب الكارثة على أنه لاعب شرعي وشريك على قدم المساواة. يعرفون أنه يقبض على روح البلد ويواصلون اللعب معه. يعرفون أنه شارك في تدمير الحاضرة السوريّة، وفي التطهير العرقي في الشام، ومع هذا فهم يتوصلون معه إلى تفاهمات واتفاقيات، ويتركون له معظم أجزاء الكعكة ويكتفون بالفتات. الجميع يعرفون أنه جعل من لبنان مزرعة للحرس الثوريّ الإيراني، ويتصرّفون على أنه ابن شرعي للبنان، ويحلّ ويربط في أمر السلم والحرب والاقتصاد والمعابر والمطار.. وما إلى ذلك من مفاصل.

لا يأتي الأمر من مزاج هذه القوى أو من تخاذل، بل يأتي من مفهوم الإخضاع الكامن في صلب القوة ـ قوة الدولة أو الكتلة المهيمنة. إخضاع المكان والزمان والناس. الدولة قائمة في أحد تعريفاتها على احتكار القوّة واستعمالها لفرض الإجراءات العقابيّة والمقاضاة، وتسمية الخارجين على القانون ومحاكمتهم. ولأن حزب الله هو الدولة الفعلية في "الدولة الاسمية"، ولأنه السيادة الفعلية داخل "السيادة الشكلية" لدولة لبنان، فهو الذي يقوم بعملية الإخضاع، لتطال الشركاء كافة، والناس كافة.. والدولة أيضاً! واستعمالها استعمالاً غائيًّا، وإفراغها من مضمونها الجامع، وإكسابها المعنى الحصريّ الذي يحوّل النظام الطائفيّ في حقبة ما قبل الحرب الأهلية إلى نموذج مثاليّ قياساً بما هو حاصل اليوم. لم تكن الدولة (لبنان) يومها قادرة على هذا الكم من قهر المواطنين والناس، ولا على التنكيل بهم. بل بدت واعدة في اقتصادها وازدهارها وبيروتها، وإن لم تكن مستقرّة.

إن دخول القوات السوريّة في العام 1976 إلى بيروت -ضمن قرار عربيّ- كان بداية الخراب الذي لا يزال يتدحرج ككرة الثلج. يومها فقد لبنان ما كان له من زمام أمور كمجتمع تشظّى وفق خارطة القوى الإقليمية وتوازناتها. كل فصيل في الداخل انضوى تحت مركز قوة في الخارج، فيما حاول الوجود السوريّ في لبنان فرض هيمنته بالقمع والإخضاع كقوة احتلال، ونظام خاوة وفساد، ومخابرات تدخل في خياشيم الناس بمن فيهم النُخب والقيادات. وعندما خرج السوريّ أوكلت المهمّة للبنانيين بالاسم.. أرادوا الدولة بالاسم.

لا رهان على منظومة دوليّة متصارعة حدّ الحروب بالوكالة. هذا مع ترجيحي أن هذه المنظومة لن تستقرّ في المدى المنظور، بل ستزيد صراعاتها. والواضح أن هذه المنظومة غير مشغولة بلبنان وشعبه إلّا بقدر ما تتحقّق فيه مصالحها. وتستطيع هذه المنظومة العيش مع الوضع القائم سنوات طويلة أخرى. من هنا أهمّية أن يأخذ اللبنانيون الأمور إلى أيديهم لاستعادة الدولة والوطن وبنائهما من جديد. المقاومة المدنية هو المخرج. مقاومة مدنية لا تكتفي بالتظاهر. هناك حاجة إلى ممانعة بمعنى العصيان المدني. لا أعرف لماذا يجلس جنبلاط وجعجع والمستقبل وغيرهم من قوى سياسيّة في الحكومة. هناك مرحلة توجب قول "لا" مدوّية للمنظومة. وهي مرحلة تحتاج إلى تعبئة صحيحة، تتجاوز العصبيّات الطائفيّة والنظام الطائفيّ الذي كرّسه حزب الله بقوة الحرس الثوريّ الإيراني والملالي ونفطهم.

يبدو هذا الكلام تنظيراً في ضوء حقيقة أن المقتدرين في لبنان خرجوا منها وبقي فيها غير القادرين على الفرار من أنشوطة حزب الله. لكني أحاول أن أجيب على سؤال من أين نبدأ؟ هذا على فرض أن هناك من يُريد أن يبدأ لبنانه من جديد. هذا في ظلّ منظومة دولية تقبل بكيانات هي أقلّ من دول يُديرها وكلاء تتواصل معهم لقضاء حاجاتها.

مَن سيكتب تاريخ الدّم السوري؟

يوسف صادق

قال محمود درويش في ديوان أحد عشر كوكباً: "للحقيقة وجهان.. والثلج أسود فوق مدينتنا"، أيُّ الحقيقتين سيحفظها التاريخ؟! سحق وقتل وتهجير شعب منذ عام 1982، أم أنّ المنتصر سيقلب الحقائق لتكون تاريخه وتاريخنا؟..

على مدار الأعوام الأربعين يلقن النظام الأطفال عبر مناهجهم، وعبر مطبوعاته ونشراته الحزبية، أنّه تصدّى وسحق الإرهابيين في حماة، ساعده احتكاره لكل السلطات، ومنها سلطة الإعلام وسلطة التعليم، وسط تغاضي العالم حيناً، أو الاستماع لروايةٍ وحيدةٍ آنذاك، لعدم وجود إعلام حر. والآن يحق لمَن مازال يعيش تشوّهات المجزرة أن يسأل: متى يُنصف التاريخ مَن كانوا وقوداً وحبراً أحمر في كتابته؟

ولا تخفى تلك العلاقة الجدلية بين الإعلام وكتابة التاريخ، فكلما كان الإعلام موَجّهاً من سلطة حزب عقائدي أيديولوجي أو سلطة عسكرية أو دينية، كان الهدف هو التأثير والتضليل، حيث تحتكر تلك السلطة الحقيقة التي تريدها لضمان بقائها، وسيكون التاريخ زوراً وبهتاناً.

لهذا فسوريا بحاجة لإعادة كتابة تاريخها منذ احتكار سلطة البعث للدولة عام 1963.

ما نحتاجه حقاً في زمن الرداءة وقوّة الإعلام المتوازية مع التطوّر التكنولوجي، هو الحقيقة الإعلامية، أي التأثير بالمجتمعات المدنية والمحافل الحقوقية العالمية من جهة، ومن جهة أخرى أن نعي أنّ الحقيقة وحدها ثورةٌ كما قال لينين، وأن يُرسّخ هذا الوعي في عمل المنابر الحرة، وفي الحوار الوطني الجامع، على أساس الاعتراف بالآخر والعدالة للجميع.

قد نجد مبررات كثيرة لعدم وصول صرخات الألم من تلك المدينة، أو من خلف جدران تدمر أو صيدنايا أو غيرها.. لكنّ تجارب السوريين منذ عام 2011 تشير إلى خفايا ما خلف الأكمة؛ فعنجهيّة النظام جعلته غير مبالٍ في كذبه على العالم، وهو يعلم أنّ كلّ العالم يعلم بحقائق ما جرى. بل وسيكتب -حسب تصريحات لوزارة التربية التابعة له- تاريخ تصدّيه من جديد "للعصابات الإرهابية والمتآمرين على صموده" في مناهج جديدة يلقّنها للأجيال القادمة!

على ماذا يراهن؟ هل انتهت الحرب -كما صرّح بيدرسون- وانتصر النظام بسحق وقتل وتهجير شعبه؟ ومَن سيعترف بانتصاره؟ أم أنّه غير معنيٍّ بذلك، وسط توازنات القوى العالمية وهيمنة سلطة القوّة والمصلحة على القرار العالمي. وإلى متى ستدوم هذه التوازنات؟ نحن بانتظار اتفاق دول القرار العالمي.

لكن من جهة أخرى، هناك إشارةٌ بعثت بها حادثتا الطفلين المغربي ريان، والسوري فواز قطيفان، لتسلّط الضوء على مأساة منسيّة يحاول العالم نسيانها لعجزه أمامها.

العالم عاجزٌ عن حلّ مأساة النازحين في الخيام، وإنصاف أرواح الأطفال؛ بدءاً من تامر الشرع وحمزة الخطيب، وصولاً لأطفال الحولة والغوطة، ثم نهلة، وشهد وليس آخرهم فواز.. بينما إيلان فقد حظي بتوثيق عدسات الإعلام في أوروبا. لكن العالم المتحضّر مستعدٌّ لتقديم المساعدات دون النظر بعيون الأطفال السوريين! نعم.. يحقّ للأطفال أن يشعروا بالحقد أو الكراهية أو ما تشاء مشاعرهم!

حينما نُصاب بالخيبة من مارسيل خليفة وفيروز على سبيل المثال ورموز تربّينا على إرثهم الإنساني حينما يديرون ظهورهم لنا، ونسأل هل سنربي أطفالنا على الحقد والكراهية؟ وليس على التسامح والحوار والعدالة! وهل نسي أطفال حماة بعد أربعين حولاً ما عايشوه؟ وهل ينسى الأطفال السوريون الآن، جحود العالم لهم غداً؟ وهل تكفي برامج التأهيل النفسي والسلّات الغذائية والهدايا، وتعيد لهم جزءاً من التوازن النفسي؟ أو لحظات من حقّهم بالعيش الكريم.

أمّا على الصعيد السياسي فيحق لمَن عاش أو ورث هذه التغريبة أن يسأل: هل محاكم كوبلنز وغيرها ستعيد لهم حياة أحبابهم وتطفئ النيران التي أكلت ذاكرتهم، وتنصف السوريين وتاريخهم، على أهميّتها الآن في القضية السورية، وهل يستحق أبناء سوريا هذا المصير وهذا الشتات؟.. وهل سيبقى هناك أملٌ ليورّث؟

هنا نأتي لدور أطياف المعارضة السياسية، ودورها الإعلامي، والتي لم نسمع إلّا عن مؤتمراتها ومنصّاتها وفنادقها، وضمير الأمّة السورية يسألها: هل استطاعت كتابة تاريخ سوريا منذ أيام الثورة؟ ولماذا لم تشغل بال الرأي العام العالمي بقضية فواز قطيفان وغيره، كما فعل الإعلام المغربي؟

كتابة التاريخ يعني ضمير الأمة، يعني الوفاء لكل إنسان انتمى لهذه الأمة بروحه أو بلسانه أو بدمائه.. المسؤولية تقع على مَن هو قادرٌ على إيصال صوته للعالم، وعلى وعي مَن يدّعي الانتماء لفكره وبلده بضرورة دور الإعلام في إيصال الحقائق وكتابتها.

مسؤوليةٌ اضطلع بها ناشطون حقوقيّون وسياسيّون وصحفيّون، رغم خطورتها وتبعاتها، فكانوا نذراً لمستقبل وطن أرادوه، شعارهم الحقيقة أولاً، وسوريا حرة ديمقراطية مدنية؛ فيحق لمثل هؤلاء الاعتزاز بما قدّم على مدى سنوات، من مواكبة الأحداث بضمير الصحفيّ، وقلب الثائر.

واليوم ما يجري في السويداء هو امتحان جديد لكل السوريين، حيث يصرّ النظام على روايته القديمة بوصم كل مَن طالب بالكرامة بالعمالة والإرهاب والطائفية، وهي فرصةٌ لقوى الثورة بمساندة حراك الأهالي السلمي في السويداء، علّ الثورة تستعيد جذوتها في النفوس. ولعلّ تسمية جمعة التظاهر "لقاء الأهل بالأهل" وشعارات المحتجّين والمتظاهرين، تعيد التاريخ إلى 2011، لتُعاد كتابته في الساحات وفي الحناجر، بدءاً من اللافتة الكبرى "هنا السويداء.. هنا سوريا"، ثمّ توجيه التحيّات للمحافظات السوريّة، وإعلان التضامن مع الصحفي كنان وقّاف ومأساة الطفل فوّاز، مُتحدين النظام وكاشفين فساده ونهبه للثروة الوطنية على مدار عقود، منادين بالعدالة والعيش الكريم لكل السوريين. ويبقى السؤال: مَن سينصف التاريخ الماضي والحاضر؟ وهل ستنتصر صرخات الشتات وأفواه الخيام وصدى السجون على أصوات الرصاص والسياط طيلة عقود؟!

جودت سعيد رؤية قريبة موجزة

د. محمد العمار

صاحبت الرجل نيفاً وثلاثين عاماً في الحضر والسفر، وجلست معه أسبوعياً بصورة منتظمة قرابة الربع قرن، أشهد أنه كان ناصحاً لله ورسوله وكتابه وأمته، وعامة خلقه، وأنه جعل عمره وجهده وكل ما يملك، وقفاً على هذه المهمة المقدسة.

كان متواضعاً فيما يلبس على أناقة ونظافة، مقلّاً فيما يأكل، ممسكاً عن الكلام، إلا ما تعلّق بعالم الأفكار، فكان لا يمل منه ولا يتعب، صبوراً على جليسه مهما أبعد الفهم وأبطأ الإدراك. كانت جلستنا في بيت أخته السيدة سعدية، فكان إذا ما انتهى حديث الفكر صمت، وربما شاركنا بعض الأحداث والأخبار، فإذا قضيت انسحب إلى بيته بدراجته القديمة، لم يقبل أن أوصله بسيارتي ولو مرة واحدة، علماً أن بيته على طريقي جيئة وذهاباً.

لا أذكر أني سمعته طيلة هذه المدة يذكر إنساناً بسوء، أو يتعقب شيخاً أو رجل علم فيما ذهب إليه مما لا يوافق ما يراه، ولقد هممت مرة أن أكتب تعقيباً على كتاب نشره أحد الأعلام، فكتبت حوالي الأربعين صفحة وعرضتها عليه، فرجاني ألا أكتب، ثم أردف إن كان لا بد لك من الكتابة، فلتبحث الموضوع بمعزل عن تعقب الرجل، ثم أضاف: "بحسبه أنه قال في كتابه (كذا وكذا..) وهو بهذا قد دفع الموضوع إلى الأمام خطوات، يجب أن نقدر هذا ونحترمه".. لقد كان هذا ديدنه بصورة دائمة، لا يبخس أحداً شيئاً، يبرز الإيجابيات والحسنات ويكثر عليها الثناء، ويتغاضى عن المساوئ والسلبيات ويتجاهلها كأن لم تكن.

وكان على المستوى الشخصي، من أكثر من عرفت اهتماماً بالشعائر والمناسك، والتزاماً بالعبادات، وبأحكام الشرع ومقاصده، لكنه كان يتجنب كل طرق الإكراه فيما يتعلق بالتزام الآخرين.

لجودت ميزتان هما علامتان فارقتان قل نظيرهما في بيئتنا الثقافية، لم أنتبه إليهما كقيمة إلا عندما صاحبته، الأولى هي الدقة في المواعيد؛ فلم أر مثله في دقة مواعيده وانضباطها، وكذلك لم أر مثله في اهتمامه بالقراءة وتعلقه بها، وكان في رأس مقروءاته وأول اهتماماته القرآن الكريم.

أشهد أنه كان مهموماً بالإنسان والقرآن، وأنه سخّر كل طاقة يملكها لخدمة هذا المشروع؛ فقد كان يؤمن أن الإنسان نواة مشروع وجودي كبير، وأن القرآن هو دليل هذا المشروع، وأنه يفتح أعيننا ويأخذ بأيدينا للتواصل مع كلمات الله في الوجود، عبر آيات الآفاق والأنفس، وأن آيات الآفاق والأنفس هي الدليل على الله والبرهان على توحيده، وأن الله في الكون يكلمنا بلغة مباشرة هي لغة الخلق، وهي لغة لا يُساء تأويلها، لأن إساءة التأويل هنا، تقود إلى تعطيل التسخير في هذا العالم المسخَّر.

هذا بعض الحديث عن عالمه الشخصي، ولم أكثر لأنني على يقين أنه لا يروقه مثل هذا الحديث، ولا يرتاح إليه، فقد كان مهموماً بما هو فوق المجد الشخصي، وزخرف الحياة الدنيا التي نغرق فيها!

أما عن عالمه الفكري، الذي هو عالمه الحقيقي، الذي عاش فيه وعاش له، في فكر يمثل الحاضر الغائب في حياتنا؛ فهو غائب باعتبار الثقافة السائدة، خاصة المنتسبة أو المنسوبة للإسلام، وهو حاضر وملحّ بحسب الحالة الإنسانية الراهنة، والحاجة الموضوعية له على مستوى الأمة والعالم.

وقد أردت في حديثي عن المفاهيم المفتاحية لفكر جودت سعيد، أن ألفت النظر إلى ما يتميز به هذا الفكر من أصالة وراهنية، وما ينطوي عليه من ملامسة كثيفة لهمومنا المعاصرة، في الدين والفكر والسياسة والمجتمع.

وفي هذا التعريف الموجز لعالمه الفكري، سنتحدث عن منطلقات التأسيس في هذا الفكر، الذي سيكون فكر جيل آت، مثلما عرف الناس ابن خلدون ومنجزه في التاريخ بعد قرون. وإن كان للأمة أن تقوم بدور الشهادة على الأمم، وأنا أؤمن أنه وعد آت، فسيكون جهد جودت سعيد المقدمة الكبرى لبدء هذا الدور، مثلما كانت مقدمة ابن خلدون تأسيساً لعلم الاجتماع البشري.

ومنطلقات التأسيس في هذا الفكر الإنساني القرآني بحسب تصوري أربعة:

أولاً - اللاعنف

إن اللاعنف كفكرة ومفهوم، يشكل قطيعة مع السائد في الفكر الإسلامي والإنساني، لكنه بحسب جودت ليس بدعاً؛ بل هو امتداد لمسار طويل خطّه الأنبياء والآمرون بالقسط من الناس، بحيث يبدو التاريخ الإنساني جهاداً دائماً للخروج من الفساد وسفك الدماء، إلى عصر السلام العالمي، عصر الإنسان. وبحسب اللغة القرآنية فإن تاريخ البشر انتقال من لحظة "أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء" إلى لحظة "إني أعلم ما لا تعلمون"، وهذه العبارة بحسب جودت تحدد أفق التطور واتجاهه في آيات الأنفس (عالم الأفكار)، مثلما تحدد آية سورة النحل "والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالاتعلمون" أفق التطور واتجاهه في آيات الآفاق (عالم الأشياء).

واللاعنف كما يفهمه جودت من التاريخ والقرآن، مقدمة أولية ضرورية لدخول عالم الأفكار، الذي يعتبر البوابة الوحيدة لدخول عالم الإيمان وعالم الإنسان؛ حيث أن اللاعنف أول قوانين الفكر، والفكر هو السبيل الأوحد الممكن للإيمان، ولا سبيل للعنف في عالم الإيمان، ولا قيمة له في عالم الإنسان، ومن هنا كان "لا إكراه في الدين" الذي يعني أن الإكراه وأدواته عاجزة عن الفعل في حقل الإيمان، ونجاعتها مرتبطة بإلغاء إنسانية الإنسان، وفي كل مرة نصطحب فيها الإكراه في عالم الإيمان والإنسان، نفسد المسار ونضيع الأهداف ونعيق التقدم، لأن الإيمان المستلب بوهم القوة ليس إيماناً، والإنسان المستباح بالقوة هو بقايا كائن إنساني، فمن غير طلاق بائن للعنف لا يمكن دخول عالم الإنسان، حيث العقل أهم الميزات، وبه يفترق الإنسان عن سائر الكائنات، والعنف ليس من قوانينه ولا من أدواته، بل للعقل قوانينه الخاصة، التي تجعله عصياً على القوة وأدواتها، والإكراه ووسائله، "ومثلما أن الخشب لا ينقل التيار الكهربائي، كذلك فإن العقل لا يعمل من خلال القوة" كما كرر جودت مراراً. فعالم اللاعنف هو عالم العقل وعالم الإنسان، حيث القطيعة مع (العضل والقوة) الخيارين الوحيدين في مملكة الحيوان، تتجسد لحظة القطيعة بين العقل والعضل في القطيعة بين العنف واللاعنف، وهي لحظة القطيعة والافتراق بين الإنسان وباقي الحيوانات، كما يبينه علم البيولوجيا، وهي اللحظة التي تتوافق من وجهة نظرنا دينيا مع لحظة "ونفخت فيه من روحي" (سورة الحجر- الآية 29)، وعند هذه اللحظة امتلك الإنسان القدرة على التسخير التي رتبت عليه المسؤولية، وهي ما نعرفه دينياً بلحظة الأمانة. (الأمانة بحسب جودت سعيد: "إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً" (سورة الأحزاب- الآية 72)).

فلا يمكن دخول عالم الإيمان، ولا عالم الإنسان من غير استبعاد العنف بصورة نهائية، وما دام هناك تعويل على العنف مهما كان ضئيلاً، فالأوراق قابلة للاختلاط، والمواقف ممكنة الالتباس، ولذلك فإن جودت سعيد استهل مشروعه الإصلاحي بكتاب مذهب ابن آدم الأول، فيما يشبه إعلان البراءة من العنف وأدواته.

لقد أراد أن يقول من خلال ذلك المؤلف، ومن خلال توقيت إصداره بالنسبة لمشروعه الفكري، إن بحث المشكلة الإنسانية غير

ممكن، ما لم يستبعد العنف كفلسفة عمل واستراتيجية بناء، وإن البحث يصبح ممكناً فقط في حال استبعاد العنف.

إن التاريخ الإنساني المليء بالآلام والدماء، دليل على تعثر حلّ المشكلة الإنسانية عن طريق القوة، وأنه قد آن الأوان للإنسان العاقل أن يفكر بطريقة للحل تحفظ إنسانيته وتنميها، ولا تتجاهلها أو تلغيها؛ فكلّ عنف في تصوره هو ارتداد للمرحلة الحيوانية، وإن الإنسان بحسب ما يقول جودت سعيد: "ينقص من عقله بقدر ما يمارس من عنف، ويتلوث إيمانه بالوثنية والشرك بقدر ما يبقى في قلبه من حنين للعنف"، وهو باستبعاده العنف، يكون قد فتح الطريق لتوظيف الدماغ من خلال قيامه بوظيفة العقل، وهنا نكون قد دلفنا للمحدد الثاني في فكر جودت سعيد.

ثانياً - العقل:

إن العقل محدّد أساسي من محددات فكر جودت سعيد، وربما يكون منشأ اهتمامه بالعقل هو الإصرار الكبير على العقل في القرآن الكريم، تعزز ذلك آيات الآفاق والأنفس، التي مرن جودت نفسه على استقرائها بطريقة تدعو للإعجاب، ولذلك نرى مفهوم العقل عند جودت سعيد مفهوماً مفارقاً مختلفاً، مقارنة بما هو شائع وسائد؛ فالعقل عنده ليس أداة قادرة على الكشف كما في الفلسفة القديمة، كما أنه ليس إلها ومصدراً للعلم والمعرفة كما في فلسفة الحداثة، ولا سراباً يقود إلى العدم واللايقين كما في فلسفة ما بعد الحداثة، بل هو وظيفة تتولد عندما يتصل الدماغ الإنساني بالوجود الخارجي، تماماً مثلما يولد الماء عندما يتحد الهايدروجين بالأوكسجين، مع فارق أن الماء وجود مادي والعقل -بحسب جودت- وجود غير مادي، وليس له ماهية. فهو ليس جوهراً، ولذلك لن يموت كما مات عقل نيتشه على يد فوكو وفلاسفة ما بعد الحداثة، إنه مهارة ووظيفة توجد بالقوة عند كل مولود يولد بدماغ سليم، وهذه المهارة والوظيفة قابلة للنمو والزيادة، بمرور الوقت، ولذلك فإن التاريخ مكون جوهري من مكونات العقل الفردي والعقل الجمعي، وهذه الوظيفة يمكن أن يُعاق نموها ويعرقل اكتسابها، كما يمكن أن تعزز وتنمى بطرق فائقة، من خلال أساليب التنشئة التي تمارسها البيئات الثقافية المختلفة.

ويبلغ الإنسان من اكتماله وتجليه الإنساني بقدر ما يكون لديه من معقولات، وهذا يتوقف على ما لديه من معرفة بمعقولات الآخرين من خلال القراءة، وما عنده من معقولات من خلال معرفته بالتاريخ واستنطاقه آيات الآفاق والأنفس. فالنظر العقلي المستقل، هو

البقية في صفحة 11 ....

الشباب السوري: جريمة وطن

جمال الشوفي

باتت الأحلام البسيطة العادية والمألوفة في كل العصور وكل المجتمعات، باتت ضرباً من المستحيل؟

حلم الارتباط بالطرف الذي يحبه، حلم بناء الأسرة، حلم إيجاد عمل يثبت من خلاله استقلاليته وقدرته على أن يصبح مسؤولاً ويمضي في مستقبل يليق به.. كلها باتت مستحيلة!

نعم هذا مصير شباب وشابات سوريا ومن بقي منهم في هذه المحرقة السورية المستمرة بأكثر من طريقة لليوم. فمن محارق الحصار والقتل الجماعي، التهجير الجماعي، إلى المفقودين والمغيبين، وصولاً اليوم لوأد قدراتهم أمام أعينهم، في جريمة وطن شاملة.

بعد النصر العسكري المزمع على الشعب السوري، استباحت العصابات المغذاة بكل أساليب الاحتيال والجريمة، بتكاليف أمنية سرية وعلنية، عملت بكل صنوف الجريمة في الظل في الأعوام السابقة، ولكنها أفصحت عن نفسها بمسميات عدة في السنتين الأخيرتين بعد توقف معظم العمليات العسكرية على غالبية الجغرافية السورية. أبرز أعمالها الخطف والسطو، والاتجار بالمخدرات، وجرائم القتل الفردية، وابتزاز الناس في أموالهم وأرزاقهم بخطف أبنائهم.

بتنا نشهد يومياً جيلاً من الشباب منفلتاً من أي قيمة، لا يردعه شيء عن ارتكاب أي فعل من الأفعال الموصوفة بالجريمة المنظمة. وبتنا نشهد اغتيال أقرانهم من الشباب السوري بطرق متعددة، منها السري والغامض، ومنها ما يكشف عنه علناً، كما حوادث مقتل مجموعة من الشباب السوري في محافظة السويداء المتتالية، وآخرها مقتل الشاب يوسف مثقال نوفل. ويوسف شاب في مقتبل العمر، قليل الخبرة في الحياة، يعتقد أن أحلامه وقدراته أكبر من واقع تملؤه الجريمة والنفوس الأمارة بالسوء، والعقول التي أكلتها المخدرات وكل صنوف الحشيش، ليقضي على يدي عصابة تافهة استسهلت الجريمة والسرقة، ووجدت الواقع حولها لا رادع فيه. قُتِل يوسف بدم بارد مقابل سيارة والطمع في ثمنها!

بين واقع موبوء بكل ما سبق وأحلام جيل عريض من الشباب، تبدأ قصة جديدة للسوريين، بل قصص وروايات لا تنتهي، ولن تنتهي ما دام الساهرون على خراب البلد ودماره هم مسيرو دفته السياسية والأمنية والمالية، ما دام القانون معطلاً إلا لخدمة أولئك دون غيرهم.

في حادثة اغتيال يوسف تداعت العديد من الفعاليات المجتمعية والأهلية للمطالبة بشنق القاتل ومن معه مباشرة، كفعل رادع لغيره عن استسهال ارتكاب الجريمة. أمام القصر العدلي حضر الكثير من أهالي الضحايا السابقين، حضر الشباب المهددون اليوم أو غداً بذات الفعل، حضرت مطالب القصاص العادل، ولم تحضر العدالة وغيّب القانون، وتبخرت الأحلام.

مصدر الصورة من النت

ولا زال مصير القاتل لليوم رهن التحقيق غير المضمون نتائجه. إذ قبل عامين من اليوم، تم الإفراج عن أحد مرتكبي الجرائم ذاتها بعفو عام بعد ثلاث سنوات من حكمه، وحينما اعترضه أحد أخوة القتيل، كرر جريمته بقتل الأخ أيضاً، ولليوم هو طليق وعلى مرمى من الناس! وكأن العفو الرئاسي أتاح له قتلَ نفس أخرى بلا رادع أو محاسبة، فيما لا زال الآلاف من السوريين يقبعون في المعتقلات، ومثلهم الآلاف مهددون بالاعتقال، ومن كافة الأفرع الأمنية، لكتابتهم رأي مخالف، أو مشاركتهم في اعتصام أو مظاهرة سلمية، أو لقولهم الحق في زمن الانهيار واغتيال وطن عن عمد.

لا يكفي أن يحلم الشاب بأن يصبح مهندساً أو طبيباً أو كاتباً، عليه أن يعمل ليصل. هكذا تفترض القيم وتعتمد أسس التربية، وهذا لا يعني مطلقاً أن ثمة مفاضلة بين الحلم والواقع على مبدأ أيهما أفضل: أن أحلم أو أن أعمل! بل كلاهما مكمل لبعض في صيغة الإنسان. فالإنسان ليس مجرد أحلام وأماني تماثلها بحدها الأعلى الميتافيزيقا، ولا هو آلة للعمل مقيدة الشروط والحدود والقدرة الإنتاجية. وما انفصال هاتين الموضوعتين عن بعضهما سوى حالة استلابية؛ سواء للوهم والخيال والإحباط أو للعمل المادي الشيئي، وكلا الحالتين متماثلتين كيفياً مع اختلاف نتائجهما. وهذا ربما يكون مدخلاً عاماً لدراسة حالات الانفصال عن الواقع التي يعيشها السوريون اليوم، والتي تنتج كل صنوف الاستلاب المعاشة، سواء كانوا الشباب النقي الباحث عن تحقيق ولو الحد اليسير منها، مثل يوسف الذي أتم خطبته قبل شهر من اغتياله، ويتابع دراسته ليكون شخصاً مستقلاً يفخر بذاته ويحقق لوالديه الطيبين الشعور بالأمان عنه وعن مستقبله.

فيما أولئك مرتكبو الجريمة ومستسهلوها، ليسوا سوى أدوات لمشغليهم الأعلى منهم سلطة، ونماذج مستلبة لرغبة الاغتناء الفجائي الساحر، سواء كانت قتلاً أو سرقة أو تجارة مخدرات..

محرك الحدث السوري واحد وإن اختلفت أدواته. الفلتان الأمني، فوضى السلاح، تعطيل القانون، وتجييره والدستور معه لمصلحة القلة القليلة من المتنفذين في حكم البلاد، وقد حولوها لمجرمين وضحايا، لعصابات وميليشيات!

لم يخطئ ابن خلدون يوماً حين ردد قبل سبعة قرون من اليوم: "عندما تنهار الدول يسود الرعب ويلوذ الناس بالطوائف.. وتظهر العجائب وتعم الإشاعة.. ويتحول الصديق إلى عدو والعدو إلى صديق.. ويعلو صوت الباطل.. ويخفت صوت الحق.. وتظهر على السطح وجوه مريبة.. وتختفي وجوه مؤنسة.. وتشحّ الأحلام ويموت الأمل.. وتزداد غربة العاقل وتضيع ملامح الوجوه"، ويا لهول غربتنا.. ويا قهر أحلام شبابنا!

واحد + واحد = أربعة! (3-3)

عبد الله شاهين

قسّم عالم الاجتماع الفرنسي إيميل دوركهايم البنى الاجتماعية إلى ميكانيكية وعضوية. الأفراد في المجتمع الميكانيكي -والذي انتشر في مجتمعات ما قبل الثورة الصناعية- لديهم نفس الوظائف والمسؤوليات، مما يشير إلى تقسيم منخفض للعمل. فالكل يقوم بذات الوظائف؛ الكل يقوم بالزراعة والرعي، والعجن والخبز، وتعليم أطفالهم وخياطة الثياب. الكل يمكنه نوعاً ما الاستغناء عن كل الباقين عن أفراد المجتمع، لكنه في ذات الوقت محكوم بقوانين تلزمه بالتماهي الكامل والانصهار في مجتمعه. فلا يمكن لأجزاء من ذلك أن تعمل بشكل مستقل إذا تم الحفاظ على الانسجام والترابط الكلي. وعلى الفرد في المجتمع الميكانيكي تكرار كافة الأعمال التي يقوم بها كل أفراد ذلك المجتمع، وإلا فإنه لن يأكل ولن تستمر حياته.

أما الترابط العضوي فهو قائم على التمايز في الوظائف والمهام بين أفراد المجتمع، فكل فرد يقوم بعمل مختص نيابة عن باقي أعضاء المجتمع، وبالتالي هو جزء من بنية متراكبة، ودوره هام في عمل المجتمع ككل، فإن توقف عن أداء ذلك الدور أثر ذلك على باقي المجتمع. وبالتالي هذا التخصص في العمل من جهة أدى إلى ضرورة العمل الجماعي من جهة أخرى، تماماً مثل التمايز الذي تقوم به خلايا جسم الإنسان فتختص كل منها بوظيفة معينة، بعد أن كانت الكائنات البكتيرية "الميكانيكية" وحيدة الخلية تقوم بكامل الوظائف في تلك الخلية المستقلة. يعتمد الفرد في المجتمع العضوي على مجتمعه، على الرغم من كونه مستقلاً، وبالتالي يصبح المجتمع متكاملاً ومتماسكاً، والعمل في هذا المجتمع جماعي بالضرورة. بعكس الفرد في المجتمع الميكانيكي، الذي يضطر إلى العمل الفردي المتكرر والمضنى، وإلى التماهي الكامل والانصهار في ذلك المجتمع من أجل البقاء.

لقد كان المجتمع السوري مجتمعاً ميكانيكياً بحق، حتى جاءتنا أمواج الربيع العربي. ظل المجتمع السوري لعقود طويلة مجتمعاً منفرطاً يكاد يخلو من الروابط العملية والتنظيمية بين أفراده. لقد أدخلتنا الثورة السورية في تجربة اختبرت بُنَانا الاجتماعية وانتخبتها. تبين لنا أن أي نواة من العمل المبني على التعاون والتكامل هو العمل الذي بوسعه خلق الحلول والمخارج. لقد بدأنا -وللمرة الأولى- من المغامرة في العمل الجماعي مع بعضنا. ما زال تحولنا هذا إلى العمل الاجتماعي في أطواره المبكرة؛

من المشاريع الإسكانية لفريق ملهم التطوعي في شمال سوريا

فبالكاد انتقلنا من العمل الفردي الذي اعتدنا عليه طوال حياتنا إلى التجمع في فرق صغيرة والعمل بشكل جماعي، تجاربنا المتواضعة هذه لم تكن يسيرة ولم تنضج بعد، لكنها بلا شك طوق نجاتنا الوحيد في العاصفة التي قلبت كوننا رأساً على عقب منذ ربيع 2011.

ثمار هذا العمل الجماعي "العضوي" بدأت تظهر في بعض الفرق والمنظمات الأهلية التي نراها اليوم في المشهد السوري، فرق مثل فريق ملهم التطوعي وغيرها استطاعت القيام بما عجزت عنه دول بأكملها. الفضل موصول لكل من آمن بهذا الفريق وهذا النوع من العمل دون شك. وما زلنا نشاهد -على الجانب الآخر- فداحة الفشل في العمل الجماعي الميكانيكي حولنا في كل مكان. من التشكيلات السياسية السورية المعارضة ذات القيمة الصفرية في أثرها ونتائجها، إلى الآلاف من المنظمات الأهلية والشركات والأعمال التي يقوم بها آلاف "الأبو حميدات" المتفردون بشكل مكرر وممل و معدوم الأثر.

إن العمل الجماعي يصاحبه نمو أسّي؛ بمعنى أن اجتماع اثنين لا يصدر عنه فقط نتاج عمل اثنين، واجتماع خمسة أشخاص ينتج عنه عمل أكبر بكثير مما قد ينتجه شخص واحد في خمسة حيوات. واحد زائد واحد يساوي أكثر من إثنين. 1+1+1+1+1 = 16. قدرتنا على التشارك في الهدف والتكامل في العمل هي السبيل الوحيد لرأب الصدع الذي خلقته هذه الحرب في واقعنا التعليمي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي. علينا أن نراهن على أنفسنا وأن نثق بأن "المجازفة" بالوثوق بغيرنا ممن يشاركنا حالنا ووجهتنا هي استثمار رابح، وإن خيبت مراجينا في بعض الأحيان. وإلى أن نصل يوماً إلى تجمع مليوني حقيقي يقلب هذا الواقع المؤلم؛ يبقى أملنا "منا وفينا".

نساء في ريف حلب

يعملن في المبيعات لتحقيق الاكتفاء المعيشي

حسين الخطيب

بدأت كثيرات من النساء في مدن وبلدات ريف حلب الشمالي تعملن في المشاريع الصغيرة والمتناهية الصغر، بغية تحقيق الاكتفاء المعيشي لأسرهن ومساندة أزواجهن، في مصروف المنزل، رغم منعهن في وقت سابق في المناطق الريفية من العمل المهني بشكل نسبي، ما حتم على المرأة غالباً أن تكون ربة منزل، إلى جانب العمل ضمن المشاريع الزراعية، والمدارس التعليمية في حال كانت متعلمة.

ومع لجوء العديد من النساء إلى العمل المهني المتنوع، كالخياطة وصناعة المعجنات والحلويات وبيع المنتجات الغذائية الدوائية وغيرها، وجدت سيدات مكانًا لهن في بيع المنتجات ومستحضرات التجميل والألبسة، على مواقع التواصل الاجتماعي، في خطوةٍ جديدة تقلل من نشاطها في أوساط المجتمعات المحلية المحافظة لدرجة ما.

تقول السيدة ريم 35 عاماً، المقيمة في مدينة مارع بريف حلب الشمالي إن أسرتها "تعيش في ضائقة مادية سيئة للغاية، بسبب انخفاض دخل زوجها اليومي، البالغ 40 ليرة تركية ما يعادل الـ 3 دولارات أمريكية، ما يمنعه من توفير كامل احتياجات الأسرة المكونة من 7 أفراد" الأمر الذي دفعها إلى البحث عن عمل يعينها على مساعدة زوجها في ظل أزمتهم المعيشية.

وأضافت: "بحثت كثيرًا عن عمل يوفر لي مصدر دخل آخر يساند زوجي في مصروف المنزل، إلا أن ندرة فرص العمل في المنطقة للجنسين من الرجال والنساء، والتزاماتي المنزلية منعاني من مزاولة أي عمل خارج المنزل، لكنه عرض عليّ فرصة عمل في بيع المنتجات على تطبيق واتساب من المنزل، ساهمت في إعانة أسرتي في محنتها، وأصبحت أعمل في بيع المنتجات كمستحضرات التجميل والألبسة، بعد إنشاء غرفة على تطبيق واتساب، تضم أكثر من 150 سيدة".

وعن عملها اليومي أوضحت ريم أنها تعرض البضائع التي ترسلها الشركة المتعاونة معها في تركيا، على غرفتها الخاصة بالزبائن، وتنتقل لاحقاً إلى جمع الطلبيات منهم، حيث تنقلها إلى الشركة الموجودة في الأراضي التركية لتقوم لاحقاً بإرسالها إلى ريف حلب.

وتحقق السيدة من عملها في هذه المهنة مصدر دخل رديف، من خلال وضع أرباح على القطع المباعة، والتي تختلف نسبة الربح فيها من قطعة لأخرى، وتحصل على نسبتها من المبيعات بعد الحصول على البضائع وتسليمها، وتحصل على 100 ليرة تركية من كل طلبية، التي تتكرر في الشهر من ثلاث إلى أربع مرات، ما يعني أنها تجني 300 ليرة تركية بشكل وسطي (ما يعادل نحو 22 دولار أمريكي).

لا تختلف قصة السيدة حليمة كوسا، 30 عاماً، كثيراً عن قصة ريم إلا أنها فعلياً كانت أشد قسوة بعد فقدانها لزوجها ومعيل أسرتها، قبل عدة سنوات. تقول السيدة خلال حديثها لمجلة طلعنا على الحرية: "تعلمت عملية التواصل مع شركات المبيعات من خلال صديقتي، فهي تعمل في هذه المهنة منذ عامين تقريباً، وتبيع الأواني المنزلية والهدايا والزينة في غرفة واتساب خاصة بالزبائن، لأحقق ما أعيل أسرتي به".

وأضافت: "واجهت العديد من التحديات في العمل الذي يكون خارج المنزل، بسبب نظرة المجتمع الذي بدأ يلقي التهم عليّ كوني أرملة، لذلك فضلت العمل من المنزل كوني مضطرة لإيجاد مصدر دخل يعيل أسرتي المكونة من 5 أفراد".

وأوضحت السيدة أن عملها في بيع وتسويق المنتجات يعود عليها بمردود مالي جيد، يصل إلى 500 ليرة تركية شهرياً، كونها اكتسبت خبرة مميزة في البيع، ما يعينها على تحمل نفقات أسرتها في ظل الظروف المعيشية المتردية التي تعيشها المنطقة".

ويحقق عمل النساء في المبيعات عائد مالي جيد يوفر لهن دخلاً ميسوراً، لكن في الوقت نفسه يثير غياب الدور القانوني والمؤسساتي المنظم مخاوف النساء من الوقوع في عمليات الاحتيال، لذلك لا بد من توعيتهن في التخطيط لأعمالهن، لإدارتها والحصول على ضمانات تعينهن على مزاولة العمل دون الوقوع في فخ الاستغلال.

ولعل من أبرز التحديات التي تواجه السيدات في العمل في المبيعات على وسائل التواصل الاجتماعي، غياب الضمانات القانونية التي تحفظ حقها في حال تعرضت لعملية نصب؛ حيث تعرضت عدة نساء للاحتيال أثناء تحويل المال قبل إرسال البضائع، مما وضعهن في مأزق، يضاف إليه تحديات تتعلق بنوع البضائع التي تختلف بين الصورة المرسلة والواقع، ما يعرضهن لمشاكل مع الزبائن.

وقالت الناشطة أسماء المحمود لمجلة طلعنا على الحرية: "المنطقة تفتقر للعديد من الخدمات سواءً التسويقية أو القانونية التي تتيح للنساء فرصة مزاولة الأعمال بالشكل الآمن الذي يحفظ لها حقها، ويقلل تعرضها لعمليات النصب والاحتيال".

وأضافت: "يقع على عاتق مكاتب المرأة التركيز على دعم طاقات النساء، وتقديم الرعاية الكاملة لهن في أكثر المهن المنتشرة في المنطقة، بالإضافة إلى ضرورة وجود عقد تعاون بين الطرفين، ما يجعل العمل أكثر أمناً على الجهتين، إضافة إلى تكثيف الجهود حتى حصول المرأة على دخل ثابت من مشروعها الصغير، والذي سيسهم في حل التعقيدات والتحديات التي تواجهها".

وتواجه النساء في ريفي حلب، تحديات منوعة تدفعها إلى مزاولة مهن متعددة في سبيل تحقيق مصدر دخل رديف يعينها على تحمل قسوة الحياة، ولعل من أبرز التحديات التي تعاني منها النساء، غياب المعيل، وارتفاع متطلبات المعيشة، وارتفاع الأسعار، وفقدان الدخل الثابت، ما يدفعهن إلى العمل مندوبات بشكل ميداني أو عبر الانترنت، في سبيل تحقيق الاكتفاء.

.... تتمة من صفحة 7

مستقبل الإنسان وحقيقته. صحيح أن كل الناس لديهم أدمغة متساوية، ولكن ليس كل الناس لديهم عقولاً متساوية، وعندما يتمكن الإنسان من إقامة علاقة عقلية بالطبيعة والتاريخ، ويقبض على السنة يكون قد حصّل العلم، وعندها ندخل في المحدد الفكري الثالث لجودت سعيد.

ثالثاً - العلم :

يقول جودت سعيد: "معنى العلم بإيجاز شديد: أن تدخُلَ السنة في العقل، وبما أن السنة لا تتبدل ولا تتحول، فكذلك العلم لا يتبدل ولا يتحول، فسنة تكون الماء لها ثبات وعدم تبدل وتحوّل، وكذلك حين تصير سُنة تكوّن الماء علماً بدخولها في الأذهان، يبقى هذا العلم حاملاً صفة الثبات وعدم التحول والتبدل".

وهذا التعريف على بساطته لا تخفى أصالته، ولا تلتبس فرادته، وهو يخرج بالعلم من استخفاف النصوصيين، وضبابية فلاسفة العلم، إلى الوضوح الذي يليق بالعلم، ويعطي القرآن للعلم قيمة عالية. ويضعه الذين أوتوا العلم موضع الشاهد العدل. وينسجم هذا التعريف للعلم مع تاريخ المعرفة الإنساني، وإنجازات العلم وتاريخه، الذي يتقدم باطراد، باتجاه أكثر رسوخاً وضبطاً ووضوحاً، ولا يتردد جودت أبداً في توسيع مفهوم العلم المنضبط الدقيق ليشمل العلوم الإنسانية، ويعزو ما يشوب أبحاثها من قصور لتخلف أدواتنا المعرفية، ويضرب لذلك المثل من علوم الحياة فيقول: "عندما كانت الجوائح تفتك بالناس ويقف العلماء أمامها حيارى، لم يكن ذلك يعني أبداً أن هذه الجوائح لا تخضع لسنة وقانون، ولكن ذلك كان يعني -كما أصبح واضحاً اليوم- أننا كنا نجهل السنة والقانون، فجهلنا بالسنة حينها لم يكن يعطينا الحق بنفي السنة والقانون وإنكارهما".

وجودت وإن كان ينطلق في تقرير السنن الأنفسية من إيمانه الديني حيث يقول: "والله تعالى حين يذكر السنة في القرآن الكريم، يذكرها متصلة بالمجتمع والأنفس، لا بالطبيعة والآفاق، والناس لا يعرفون السنة إلا في الطبيعة، ولا يعترفون بها في الأنفس، ويعتبرون عالم الأنفس خارج الثبات أو خارج السنة، وهذا مناقض لمنهج القرآن، بل ومناقض لمناهج المسلمين السابقين، ولقد جاء إلى العالم الإسلامي قصر معنى العلم على الآفاق من المفهوم الغربي للعلم"، لكن من غير شك فإن آيات الآفاق تدعم ذلك وتعززه، وهي سنده في تقريره هذا التوسيع لمفهوم العلم، فتراه يقول: "وهكذا في الأمور الاجتماعية، فالمجتمع الذي يفقد العدل يفقد الاستقرار" ثم يستشهد بقول الرسول: "إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد".

وللعلم بحسب جودت أدلة وبراهين ثلاثة هي: التنبؤ والتسخير والعاقبة، وهو يعطي للعلم من الصدقية والموثوقية ما يجعله قادراً على حلّ المشكلات ومجابهة المعضلات، وأن لا ملجأ إلا له ولا مخرج إلا من خلاله، لأن بديل العلم هو الظن، والظن أسلوب تدينه آيات الكتاب، وتأباه آيات الأنفس..

رابعاً - القرآن

يحضر القرآن في العالم الفكري لجودت سعيد، كدعوة دائمة للنظر والانتظار، اللذين هما مدخل عالم العقل وبوابة اكتساب العلم، يحضر القرآن عند جودت سعيد، مستنداً إلى التاريخ، متحرراً من الآباء، منفتحاً على المستقبل، منهجه العلم، وسبيله العقل، ودليله العاقبة، أدواته آيات الآفاق والأنفس، راسخاً كما التاريخ، نامياً كما الحياة، غضاً راهنا كأنه الآن يتنزل، مدخله العقل وبوابته العلم، يقدمه قانون النسخ، الذي يحدد اتجاه الخلق ووجهة الحركة في الوجود، باتجاه الزيادة والاكتمال "يزيد في الخلق ما يشاء" (سورة فاطر- الآية 1)، ويحضر التاريخ الإنساني من خلال القرآن كصيرورة دائمة باتجاه الخير والأبقى، وتقدم متصل باتجاه عصر الإنسان؛ العصر الذي يكف فيه الإنسان عن الفساد وسفك الدماء.

ويحضر البشر من خلال القرآن مكرمين "ولقد كرمنا بني آدم" (سورة الإسراء- الآية 70) على صعيد واحد فجميعهم "بشرٌ ممّن خلق" (سورة المائدة- الآية 18) يحضرون بألوانهم واختلافاتهم، لا تفرق بينهم النسك، "لكلّ أمّة جعلنا منسكاً هم ناسكوه" (سورة الحج- الآية 67)، ولا تمايز بينهم الشرائع "لكلٍّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً" (سورة المائدة- الآية 48)، ولا تباعد بينهم العقائد "فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون" (سورة البقرة- الآية 113). يحضر البشر وميزتهم اختلافهم، الذي هو دافعهم لاستباق الخيرات "ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات" (سورة المائدة- الآية 48)، يتفاضلون عند الله بالتقوى، التي يمكن أن نعرفها بأنها السلوك النافع المؤسس على العلم والمعرفة.

يحضر القرآن في فكر جودت سعيد كتاباً للحياة، ينطلق من لحظة في تاريخ البشر، ويحلّق مخلداً عبر الزمن، "لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد"، ولا تستنفذ خزائن معانيه، يخاطب البشر بعد مليون عام، مثلما خاطبهم قبل ألف عام، ومثلما يخاطبنا اليوم، وكأنه يحاكي ما تكن نفوسنا من آمال وما يخالجها من مشاعر، لم يستنفده مفسرو الماضي، ولن يستنفده مفسرو الحاضر، بل هو غاصّ بالمعاني التي تلامس عقول وآمال وآلام البشر في كل جيل حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

الكاتب والمكان

حسين الضاهر

قد تعتبر القراءة؛ وقودًا مثاليًا لدفع عجلة الكتابة، وخزانًا معرفيًا لا يمكن الاستمرار من دونه، وقد توجد مؤثرات ومحفزات كثيرة تساهم في تفريغ الكاتب لشحناته الإبداعية، وبالتأكيد تعد البيئة والاحتكاك جزءًا لا يمكن التغاضي عنه هنا؛ فالكاتب ابن بيئته، ومهما حاول اجتياز الواقع والقفز عليه، بالتحليق في فضاءات الخيال، لا بد أن تظهر انعكاسات واقعه المعاش بين مفرداته.

وعليه فإن المكان أو البيئة هي إحدى العوامل الرئيسة في عملية الكتابة، وقد توازي أهميتها أهمية القراءة. فإن جئنا مثلًا إلى عوالم الرواية أو القصة، سنجد أن المكان والزمان هما الركيزتان الأساسيتان والتي يتمحور حولهما السرد دائمًا. وكما تفرض القراءة سطوتها على النص المكتوب، يفرض المكان حضورًا قد يغير أدوات وحتى لغة الكاتب، وذلك من خلال الشحنات التي يُكسبها المكان للنفس البشرية.

وهنا مثلًا نستطيع الاستشهاد بأدب السجون؛ حيث تدور الكتابة فيه ضمن أربعة جدران، ومهما حاول الأديب السجين تجاوز محنته، لا بد أن تظهر ارتدادات المكان في سطوره. وحتى إن عبرنا هذا الشاهد وتوقفنا عند إنسان "كاتب" حر طليق، سنلمس على الأقل حضور المكان أو البيئة في كتاباته.

مدن الشحن:

ونستطيع إطلاق صفة "مدن الشحن" على تلك الأماكن التي يكتسب فيها الكاتب احتكاكًا وتجاربًا جديدة تنمّي لديه عاطفة ما أو تجربة جديدة. وقد تحمل هذه المدن أو الأماكن صفات؛ إيقاع الحياة السريع والمتواصل، والتي تكتظ بالوجوه والأصوات، تلك المدن بفنّ عمارتها ومعالمها الأثرية، وحتى بأزقتها وشوارعها الخلفية، بزحامها وهدوء بعض أركانها. كل هذا، يغذّي مخزون الكاتب ويُعتبر مصدراً يستمدّ منه الحيوية، ويستقي منه الصور والأحداث التي قد تبدو للقارئ في بعض الأحيان خيالية ومستحيلة الحدوث، لكن من يتمعّن جيداً في تفاصيل الحياة من حوله، يجد أنّ الحكايات التي تحدث خلال مسيرة اليوم قد تكون غرائبية ولا منطقية لدرجةٍ تتخطّى العقلية الإبداعية بمسافة كبيرة. لكنها في النهاية حقيقية.

ومن ناحية أخرى قد تكون الأرياف أو الأماكن الهادئة، هي بيئة جيدة لبعض الكتّاب والمبدعين، لاكتساب حالة تراكمية إبداعية، وهنا يستقي الكاتب شحناته من التأمل والسكينة والطبيعة المحيطة، وقد ظهرت تأثيرات البيئة والطبيعة في نتاجات إبداعية كثيرة، وعلى سبيل المثال؛ شعراء وأدباء الأندلس؛ حيث برزت انعكاسات الطبيعة الجميلة في نتاجهم الأدبي، بأجمل الصور.

مدن الحرب والكوارث:

وكما تحمل المدن التي تشهد معاناة معينة، كالحروب والكوارث، طابعًا تراكميًا، فكثير من الإبداع يأتي إثر معاناة أو معها. فتحرك الراكد داخل الكاتب، وتثير لديه نواح وجدانية، إنسانية، أو حتى عنيفة أحيانًا.

ومن المؤكد بأن الثورة السورية، ومن بعدها الحرب التي شنها النظام والقوى العسكرية على الأرض السورية، هي حافز شهدت بعده الحركة الأدبية السورية نقلة نوعية، فباتت نتاجات هذه الثورة لا تحصى ولا تعد، في مجالات الرواية والشعر والمقال وغيرها من الفنون الأدبية. وقد احتاجت هذه التجارب للظهور مدة أو حالة انتقالية لتستطيع معها تفريغ نتاجها المكتسب من تجربة الحرب. وهنا يبرز دور مدن اللجوء أيضًا، بالإضافة إلى حالة اللجوء بشكل عام، كالدروب التي سلكها السوري للوصول إلى النجاة.

وفي هذا الشأن أيضًا، طفت على السطح تجارب عدة، تناولت موضوعات اللجوء والمدن الجديدة، كمادة لكتاباتهم. وفي حين تعد هذه التجارب "الخروج من الوطن، حالة اللجوء" مواضيع وجدانية إنسانية، إلا أن تناولها لا بد أن يبدأ من المكان، إن كان المكان الذي تُرك، ومكان الوجهة أو الوصول. فالمكان هنا يعتبر الركيزة الأساس والمحور الرئيسي في العملية الكتابية.

مدن التفريغ:

وتأخذ هذه الأماكن صفة الاستقرار النسبي، وشبه الديمومة. يكتسب منها الكاتب الشعور ولو جزئيًا بالاستقرار، فيقوم بتفريغ شحناته الشعورية، بعد التماسه حالة الاستقرار التي يُكسبها له المكان. وقد تستثنى من هذه الأماكن؛ السجون وحالات الاحتجاز القسري، وعلى الرغم من ذلك فهي تعد أماكن شحن وتفريغ في الوقت ذاته، يكتسب فيها الكاتب معاناة توقد قريحته، وتمنحه أيضًا شعورًا بالمكان المُحتجز فيه. فيعمل ضمن الحالتين في آن واحد.

وتتصف الأماكن التي يستطيع الكاتب الإنجاز فيها "مدن التفريغ" بحالة من الهدوء، يقتات الكاتب فيها على ما اكتسبه من معارف وقراءات، ومشاهدات، وحتى حالات الإثارة الوجدانية والعاطفية السابقة. ومن الطبيعي أن مخزون كل كاتب سينضب يومًا طالما أنه لم يخض غمار تجارب وحالات جديدة. وربما سيعيد تكرار نفسه، وبما لديه من مخزون قديم. لذلك لا بد له أن يستلهم تجارب جديدة، من أماكن جديدة، واحتكاك مع شخوص وأحداث.

وفي المحصلة، تأتي بيئة المنشأ، كمكان مؤثر من الدرجة الأولى في مسيرة الكاتب، تصقل شخصه وتجربته، وتبلور أسلوبه، ليأخذ من الذكريات المتراكمة، مادة دسمة ينثرها على موضوعاته، فتبقى طافيةً على سطح مشروعه الأدبي، إلى النهاية. ومهما حاول الكاتب إخفاء هذا التأثر الذي اكتسبه من بيئة المنشأ، باكتساب تراكمات جديدة من أماكن جديدة، لا بد أن تظهر بيئة المنشأ كهوية شخصية دالة على صاحبها.

وأخيراً، نستطيع إدراج كل ما كُتب تحت بند التجارب الشخصية، ومن المؤكد أنها تختلف من شخص إلى آخر ومن بيئة إلى أخرى. إلا أن الشيء الثابت من كل هذا، هو أن للمكان سطوته على العملية الكتابية، سطوة لا يمكن تجاوزها أو التغاضي عنها مهما حاول الكاتب الخروج منها والتعاطي مع مخياله الإبداعي.

"أصنام" في بيت "الخليفة"! مشاهد لم تروَ عن ليلة الإنزال

علي الدالاتي

بين أشجار الزيتون في الأراضي الزراعية التي يختلط فيها الشجر والخيام والبيوت، وعلى مقربة من أكبر تجمع للمخيمات في شمال سوريا، بناء مؤلف من ثلاث طوابق تعود ملكيته لمحمد الشيخ، أحد أهالي بلدة أطمة على الحدود السورية التركية، والذي قام العام الماضي بتأجير الطابق الأول الذي له مدخل منفصل لعائلة، والطابقين الثاني والثالث لعائلة ثانية ليعتاش من الإيجار. معظم هذه الأبنية بنيت في سنوات الحرب لإيواء أكبر عدد من النازحين.

لم يعلم الشيخ أنه سيخسر منزله بسبب هذا الإيجار؛ فكل ما يعرفه أنه أجر المنزل لسائق سيارة لنقل البضائع، لا علاقة له بما يجري، فلا خطر منه -أو عليه- قد يصيب المنزل. ولكنه صُدِم عندما عرف أن أصوات الانفجارات والاشتباكات جميعها كان مصدرها منزله المؤجر، وأن العملية تستهدف القضاء على "الخليفة" قائد تنظيم داعش! حضر الشيخ مسرعاً في صباح ليلة العملية، ليتفقد المبنى والأضرار التي لحقت به. عند وصوله رأى أن البناء قد دُمِّر طابقه الثالث (الملحق) بشكل شبه كامل، ماعد المطبخ؛ كون "القرشي" قد فجر نفسه في ذات الطابق حسب روايات الشهود. أما الطابق الثاني فكانت به آثار تخريب وإطلاق نار وأغراض مبعثرة في كل مكان، مع آثار دماء على الأرض والجدران، وأعيرة نارية متناثرة على الأرض. يُمكن لمن ينظر للأغراض المبعثرة ملاحظة كميات كبيرة من الأطعمة والأدوية، مع وجود لعب أطفال مبعثرة بين الغرف، بالرغم من أن التنظيم كان قد منع سابقاً في مناطق سيطرته أي دمى لها وجوه أو أعين أو جسم بشري، بالإضافة لألعاب الأطفال المستوحاة من أشكال الحيوانات! إذ اعتبر تلك الدمى أصناماً، وحيازتها تعني العقوبة لأنها شكل من أشكال الوثنية!

وعن تلك المفارقة قال الشيخ حسن الدغيم إن التنظيم لديه تبريرات واهية لهذه الأمور؛ كالأسباب الأمنية واعتبارات خاصة، وحجج أخرى لخرق القواعد التي وضعها، رغم أن عناصره كانوا يكفرون غيرهم لفعل ذات الأمور، أو حتى أقل منها. وأكد الدغيم أن داعش تنظيم يحمل أفكاراً اختلطت بها أفكار الغلو، وحزب البعث، وهذا قد يكون أحد أسباب المفارقات تلك. ويتابع أن التنظيم جعل من الإجرام الصفة الثابتة الوحيدة له؛ فعقيدة التنظيم تستحل الدماء والأموال، والخطف لأخذ الفدية، كما مارس السلب والنهب، ولم يتوقف إجرامه عند دمى الأطفال..

البناء الذي استهدفته غارة أمريكية وقُتل فيه زعيم تنظيم داعش

أما الناشط ماجد عبد النور فيقول عن ازدواجيات تنظيم داعش: "يكفروننا ويستبيحون دماءنا، ويرون في قتلنا أولى الأولويات، ثم يختبئون بين خيامنا كالجرذان"! وفي لهجة الساخر المستنكر يكمل كلامه: "..في وقت شدة البرد كان في منزل "الخليفة" عدة مدافئ، وفي مطبخه ما لذ من الطعام، رغم أنه يعيش في منطقة تملؤها المخيمات، وبيات أهلها وقد أصابهم البرد والجوع، وكأن الخليفة المزعوم لم يسمع ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع إلى جنبه".

مشهد الدماء على ألعاب الأطفال المتناثرة، أو تلك الألعاب الملطخة بالدماء، والتي اخترقتها الشظايا، تحمل دلالات كبيرة بنظر الصحفي فايز الدغيم؛ فهي "ترمز لإيديولوجيا التنظيم، بالإضافة لسياسة التحالف بالقضاء على التنظيم؛ فكلاهما لا يفرقان في أعمالهم بين مقاتل أو طفل، أو مجرد لعبة أطفال كان يحملها طفل للمرة الأخيرة قبل أن يُقتل، أو أن يكبر ويعرف أن والده هو المطلوب الأول دولياً". وربما الأغرب هم الأطفال الذين تجمهروا حول البيت المستهدف، وبسبب منعهم من دخول البيت لم يشاهدوا الألعاب المرمية بالأرض، والتي ربما لم يحصلوا على مثلها منذ سنوات، ولكنهم وجدوا ألعاباً أخرى، هي عبارة عن المخلفات الحربية للإنزال، وآثار دماره، وهي "ألعاب" اعتادوا عليها منذ سنوات، ولكن هذه المرة اختلفت الدولة المصنعة؛ فأولئك الأطفال تعودوا على المخلفات الحربية الروسية، وما خلفه الإنزال الأمريكي هي ألعاباً أقل توفراً مما خلفته الحرب الروسية عليهم منذ سنوات.

وكانت مروحيات تابعة للتحالف الدولي نفذت إنزالا جوياً في أطمة شمالي إدلب، على الحدود السورية التركية، بعيد منتصف ليل الخميس 2 شباط/ فبراير الحالي، وسط تحليق مكثّف لطائرات ومسيّرات حربية أمريكية في سماء المنطقة. وقُتل في العملية التي نفذتها القوات الخاصة الأميركية زعيم تنظيم داعش أبو إبراهيم القرشي الملقب بالحاج عبدالله قرداش، و13 شخصاً، بينهم أربعة أطفال وثلاث نساء، بحسب بيان الدفاع المدني السوري. وسبق أن سقط عدد من الضحايا المدنيين في عمليات للتحالف في شمال غرب سوريا، كان آخرها إصابة ستة أشخاص من عائلة واحدة بجروح في غارة جوية أمريكية استهدفت شخصاً في تنظيم القاعدة قرب مدينة إدلب نهاية عام 2021.

جدليّة الإنسان والمكان في رواية "بيت الأرمنيّة"

ياسمين نهار

نتعلّق بالأماكن.. يفتننا سحرها.. نساهم في تكوينها، لكنّها سُرعان ما تردّ الجميل وتكوّننا؛ لذلك لا نستغرب وجود بعض ملامحها في سَحَناتنا.. في طباعنا.. في نبرات صوتنا..

نتعلّق بالأماكن.. نسمّيها، وحين نسمّيها نؤنسنها، لتصبح يوماً بعد يوم شريكة الاغتراب والإذلال وانجراح الذّوات.

الكاتب فيصل أبو سعد في رواية "بيت الأرمنية" لم يجعل المكان أرضيّة تقع فيها أحداث القصّة فحسب؛ بل هو بُعدٌ من أبعاد الذّات، ومرآة تعكس مشاعر بطل قصّته "ناصر".

والجدير بالانتباه أنّ البيوت في الرّواية تجاوزت حدود حضورها الحسيّ الأصمّ، لتصبح كائنات إنسانيّة تتميّز بالحيويّة والقدرة على التّواصل وإمكانيّة التّأويل.

يحاور ناصر البيوت، يمارس تأثيره عليها؛ فترفع عنها الحجب وتبوح بأسرارها. ومن المهمّ الإشارة إلى مكان ورد في الرّواية حمل صفة الخوف والإكراه والرّعب، وأبرز الضّغط والتّعذيب النّفسيّ الذي يتعرّض له قاطنوه وهو السّجن. كم على جدران السّجن من دماء وآهات وصرخات نجح ناصر في اكتشافها والإصغاء إليها حين اعتقل فيقول: "رموني في الظّلام والصّقيع وغادروا، شهران ولا رفيق لي في الصّمت سوى نفسي، لذلك رحت أحادثها، ورحت وإيّاها نكلّم حجارة الجدران المتآكلة، بيدي أقرأ عليها حروف العذاب لا بعيني. وراحت بدورها تخبرني بكلّ ما لديها. كم من يدٍ خرمشت صمت الحجارة، كم من دماء سالت عليها، كم من الآهات خبّأت في شقوقها، يا إلهي.. وكم من الآهات أطلقت.. نعم كانت تحادثهم، تتعاطف معهم، تحثّهم على الصّبر، إلا أنّهم ما كانوا ليسمعوها، أنا أسمعها الآن، أسمعها بكلّ وضوح" ص129.

بعد تلك التّجربة القاسية كان على ناصر أن يكمل حياته من جديد، ويتابع دراسته في كليّة الفنون الجميلة، لكنّه يتفاجأ بفصله من الكليّة، وأثناء استكمال أوراق التّسجيل في كليّة أخرى يُمسكون به ويرسلونه إلى معسكر للتدريب لأنّه متخلّف عن الخدمة الإلزاميّة.

يتعرّض ناصر لمحاكمة عسكريّة أثناء خدمته الإلزاميّة لأنّه دافع عن الجنود وطالب بأبسط حقوقهم. في تلك الأثناء يزوره ابن خاله أسامة -وهو ضابط تزوج أخته منيرة- ويطلب منه أن يتصنّع الجنون لينجوَ من التّهم المُلصقة به.

هكذا يخرج ناصر من السّجن الصّحراويّ بعد تسعة أشهر، يتمّ خلالها عرضه على لجنّة طبيّة.

هنا يحقّ لنا أن نتساءل: هل على الإنسان أن يتصنّع الخُبل أو أن يكون مجنوناً فعلاً في هذه البلاد لينجوَ من تبعات مواقفه وآرائه؟!

والحقيقة أنّ ناصراً منذ أن عاد إلى مدينته "زارة" بعد تجربتي سجن أدمن السّير في شوارعها، والوقوف عند تفاصيل أمكنتها والتقاطها، لعلّها تبوح بمداخلها، وتكشف أسرارها.

كلّ البيوت التي أراد ناصر أن يحادثها استجابت له، حاورته، باستثناء بيت الأرمنية؛ استعصى على ناصر ولم يبح بأسراره إلّا بعد محاولات حثيثة.

"بيت الأرمنية" هو عنوان الرواية، ونقطة الاتصال الأولى بين القارئ والرّواية، ولا شكّ أنّ فكّ رموزه من شأنه توضيح دلالات السّرد. "بيت الأرمنية" هو بيت فتاة اسمها "ديكرانة" نجت من مذابح الأرمن الذين استُهدِفوا بشكل ممنهج بالقتل والاعتقال والتّعذيب والتّهجير بين عامي 1919-1920، ومن لم يُقتَل في المذابح منهم مات جوعاً وعطشاً أثناء ترحيلهم إلى الصّحراء السّورية.

بعد أن تزوجت "ديكرانة" من "ريمون" وقع اختيارها على "زارة" لتصبح وطناً بديلاً عن الوطن الأصليّ تتأصّل فيه هوّيتها، وتمتدّ بأرضه جذورها.

بلعبة فنيّة متقنة جعل الكاتب بيت الأرمنية يبوح لناصر بأسراره دفعة واحدة، بعد أن أمسك ناصر بكلّ الخيوط؛ بدءاً من كلام أخته منيرة -التي علّمته استنطاق البيوت- عن صور وذكريات غريبة، وانتهاء بما أبان له البيت من الحقائق المتوافقة مع رؤاه التي كانت تغذّيها أحاديث منيرة.

والحاصل أنّ "ديكرانة" التي قتلها عسكريّ استأجر القبو في منزلها، هي "منيرة" أخت ناصر في هذا الجيل. وهنا وظّف الكاتب فكرة التّقمّص في روايته؛ وتعني انتقال الرّوح من جسد إلى جسد بعد الموت.

ولابدّ من الإشارة هنا إلى أنّ توظيف تجربة التّقمّص فنيّاً يشير إلى التّجدّد والولادة الدّائمة، لكنّ الكاتب حمّلها بُعداً جديداً هو انتقال مآسي القتل والتّهجير من بلاد إلى بلاد ومن شعب إلى شعب.

بهذا المعنى تكون مأساة الأرمنية قناعاً للمأساة السّورية، وما تعرّض له الشّعب السّوري من تعذيب واعتقال وإبادة وتهجير..

غير أنّ ما ينبغي ألّا يفوتنا هو الوقوف عند صورة المرأة في الرّواية، والتي لم تخرج عن صورة المرأة المرتهنة للمجتمع الذّكوريّ، ودليلنا على ذلك والدة ناصر، التي عانت من وصاية وجشع الإخوة، وحرمان التّعليم؛ ذلك أنّ والدها كما ورد على لسان ناصر "أخرجها من المدرسة لتحلب البقرة، منعها من القراءة كيلا تفسد كبنات جيلها، ثمّ سارع لتزويجها، لا خشية إملاق وفقر، ولا خوفاً عليها أن تبقى مثل أختها الكبرى ندبة في وجهه، ولا طمعاً بثروة أبي وجاهه، زوجها فقط لأنّه اكتشف اهتمامها بأمر خطير أطار عقله من

محلّه، اكتشف أنّها ترسم"! ص58. وليست ابنتها منيرة أوفر حظّاً من أمّها؛ فقد أخرجوها من المدرسة، وزوّجوها ابن خالها الضّابط، وهي من كانت تكره العسكر ولباسهم.

ومن الملاحظ أنّ الكاتب قسّم الرّواية إلى كلام مكتوب بخطّ صغير، هو عبارة عن ذكريات أوردتها شخصيّة "ناصر"، غطّى ناصر من خلالها حوادث تعود إلى الزّمن الماضي القريب والماضي البعيد الذي قد يرجع إلى سنوات الطّفولة. أمّا الكلام المكتوب بخط أكبر يشير إلى أحداث وقعت في الزّمن الحاضر، وردت على لسان "ناصر"، بالإضافة إلى كلام الرّاوي السّارد الذي كان يوضّح مواقف الشّخصيّات ويفسّر الأحداث ويعلّق عليها، ويمكن القول إنّ أحادية الرّاوي هيمنت على السّرد وصبغته بأسلوب المؤلّف.

غير أنّ ما ينبغي ألّا يفوتنا هو الحديث عن تعامل الكاتب مع الزّمن وما فيه من مغامرة وتجريب، حين استخدم النّسق الزّمنيّ المتقطّع المتناوب بين زمن الحكاية الرّاهن والزّمن الماضي؛ وقد استمرّ التّناوب بين الزّمنين إلى نهاية الرّواية، وساهم بدوره في تقليص المسافة بين ماضي الشّخصيّة وحاضرها.

والجدير بالانتباه أنّ النّسق الزّمنيّ المتقطّع لم يُظهر شخصيّة "ناصر" ظهوراً متنامياً ومتماسكاً، وهنا يأتي دور المتلقي ليعيد صياغة الشّخصيّة في وعيه بعد الانتهاء من قراءة الرّواية، وهذا يحتاج إلى قارئ قادر على الإمساك بالخيط الرّفيع الذي يربط ما بين الأحداث، وإعادة ترتيب الزّمن.

ومن المهمّ الإشارة في هذا المجال إلى أنّ تقطيع الصّور السّرديّة وتركيبها وفق تزامن جديد دليل على إفادة الكاتب من تقنيات الفنّ السّينمائيّ، ولاسيّما حين استخدم تقنيّة الاسترجاع الفنّيّ (الخطف خلفاً) التي كسرت رتابة السّرد، وأضاءت الشّخصيّة من الدّاخل، وبيّنت آثار الماضي في تكوين حاضرها، وتقنية المونتاج (تأليف المشاهد السّرديّة وتركيبها). ومن اللّافت للنّظر أنّ لغة الكاتب امتازت بالشّاعريّة، ولاسيّما حين يتعلّق الأمر بوصف المكان ودليلنا على ذلك: "زارة؟!! هي نقش الزّمان على قميص الحجر.. هي شال من ضباب سماويّ، ملقىً بإهمال فوق بساط من العشب. هي غصنٌ مكلوخٌ من شجرة النّار، وربّة حجريّة هي، تتمدّد عند سفح أغرب جبل في الدّنيا، فمرّة كلّ ألف عام، يلتقي باطن الأرض بظاهرها، يمسح باللّظى وجوه الخلايا، وتغور الكائنات جميعها في الطّمي، كأنّه يمنح الحياة فرصة كي تصحّح أخطاءها" ص22.

وليس هذا فحسب بل زاوج الكاتب بين الفصحى والعاميّة ليبرز تفاوت وعي الشّخصيات، وتنوّع الخطاب الاجتماعيّ والثّقافيّ لديها. وهل السّرد إلّا صورة لغويّة للواقع وما فيه من علاقات إنسانيّة- اجتماعيّة- ثقافيّة- سياسيّة..

وخلاصة القول: على الرّغم من حضور المكان الجميل والطّاغي على امتداد الرّواية، إلّا أنّ الرّواية رواية الإنسان وما اختزن في تلك الأمكنة من ذكريات وأسرار وأوجاع؛ ذلك أنّ الفضاء الرّوائيّ أكثر اتساعاً من أن يُحدّد بالبيوت أو الشوارع أو الأمكنة أو الأثاث.. هو فضاء الذات المقموعة منذ الصّغر، فضاء الهويّة المُجبرة على الاقتلاع من جذورها، لهذا السّبب اتّخذت الرّواية شكل البناء الدّائريّ الذي يشبه الحلقة فكانت نهاية الرّواية النّقطة التي بدأت بها، فليس عجيباً أن يدور الجميع في حلقة مُفرَغة في بلاد تُكَمُّ فيها الأفواه، وتُقمَع كلّ صبوة للانعتاق.

هكذا نرى أنّ رواية "بيت الأرمنية" من الرّوايات التي تؤكّد قول هيجل: "الرّواية تصوّر التناقض القائم بين الإنسان والعالم الذي يعيش فيه، واغترابه عنه في المجتمع الحديث".

طلعنا عالحريّة